

في أفق السياسة العالمية

سياسة الدول في الشرق الأوسط

لعل أخرج مراكز السياسة في العالم الآن هي منطقة الشرق الأوسط ؛ فقد تحول مركز الثقل السياسي بعد الحرب الأخيرة من أوروبا إلى سواحل شرق البحر المتوسط وخليج فارس وما بينهما من بلدان الشرق الأوسط ولم يبق على مسرح السياسة في أوروبا سوى بعض المناظر الجانبية الأوربية . أما الدوامية التي تنجذب إليها تيارات السياسة العالمية وتلتقي فيها المصالح الكبرى للدول أو تصطدم فقد تحركت شرقاً من المحيط الأطلسي إلى مياه الشرق الأوسط . وليس غريباً بعد أن أصبحت الحرب ظاهرة عالمية يشترك فيها الشرق والغرب وتحالف عليها دول العالم القديم والجديد أن تتجه سياسة الدول نحو المركز الذي تتجمع فيه أهم خطوط المواصلات في العالم برية كانت أو بحرية أو جوية . وقد دلت الحربان العالميتان على ما لهذه المنطقة من أهمية حرية خطيرة امتازت بها على سائر الميادين الأخرى . ففي الحرب العالمية الأولى كانت ثورة العرب ضد الترك في الحجاز وبلاد المشرق وهزيمة الترك ومعهم حلفاؤهم الألمان على قناة السويس عندما حاولوا غزو مصر في فبراير سنة ١٩١٥ - كان هذا وذاك من أهم الأحداث التي حولت مجرى الحرب لصالح الحلفاء . وكانت معركة العلمين في الحرب العالمية الثانية الحد الفاصل بين الهزيمة والنصر فقد ارتدت على أثرها قوات المحور عن شمال أفريقية . وأصبح نصر الحلفاء بعد تلك الموقعة وشيكاً قريب النال

وها نحن أولاء نرى في قيام جامعة الدول العربية وساعيها للتخلص من نير الاستعمار الأجنبي وفي النزاع القائم بين العرب والصهيونيين في فلسطين وفي تنافس الدول بشأن ليبيا ومستعمرات إيطاليا القديمة . نرى في كل هذا وفي غيره ما يندرج بأشد الأخطار على قضية السلام لافي الشرق الأوسط . هذه بل في العالم أجمع . ولم يكن هذا أول عهد الشرق الأوسط بتنازع القوى العالمية في مياهه

وعلى أديم سهوله وهضابه . فقديمًا تطاحت في ميادينه جيوش الفرس والاغريق وانتصر الاغريق بقيادة الاسكندر الأكبر فاصطبع الشرق الأوسط بالصبغة الهيلينية ثم ورثه البطالمة فالرومان وبعدهم البيزنطيون . وظهر العرب في العصر الوسيط فانتصروا على دولتي فارس وبيزنطة وسرعان ما طبعوا شعوب الشرق الأوسط بلسانهم وعاداتهم وغرسوا في قلوب أهله ذلك الدين الخفيف مسوا ثم أصبحوا مسلمين يتكلمون العربية وكأما قد قطعوا كل صلة بماضيهم القريب . ثم قامت من اوربا إلى بلدان الشرق الأوسط حملات الصليبيين التي بدأت في أواخر القرن الحادى عشر واستمرت إلى قرب نهاية القرن الثالث عشر وكانت الحرب سجالات بين المسلمين وطوائف الفرنجة حتى جمع المسلمون كلمتهم في عهد الأيوبيين أولاً ثم في عهد سلطنة المماليك فانتصر المسلمون وسقطت عكا آخر حصون الصليبيين عام ١٢٩١ ويسقطها زالت دولة الصليبيين اللاتينية من الأراضي المقدسة ولم يبق لهم في تلك الأصقاع إلا بقايا ورسوم من حصونهم وقلاعهم التي بنوها وإلا قطرات من دمائهم لا تزال تسرى في شرايين بعض أهل البلاد المسيحيين .

وظهر الأتراك العثمانيون في بلاد الشرق الأوسط في أوائل القرن السادس عشر بعد أن كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت إليه تجارة الشرق فتدهورت الصناعة والتجارة في بلدان الشرق الأوسط وقل فيها الإنتاج وآوت شعوبه إلى سبات عميق لم تصح منه إلا على صيحة الثورة الفرنسية وطلقت مدافع نابليون بونابرت في اشرق .

ويظهر بونابرت على رأس حملته في مصر نبيهته انجلترا إلى الخطر الذي تتعرض له مصالحها وممتلكاتها في الشرق إذا رفض عدوها في تلك المنطقة الحيوية التي اعتبرتها منذ ذلك الوقت الرقبة التي تصل بين الرأس في انجلترا وبين جسم مستعمراتها في الهند والشرق . فأخذت تعمل كل ما وسعها لأجباط مسعى الفرنسيين من جهة ولتثبيت نفوذها على طول الطريق إلى الهند من جهة أخرى . ومن أجل ذلك نشبت معركة أبوقير البحرية سنة ١٧٩٨ وفيها دمر نلسون أمير البحر الانجليزى أسطول بونابرت وقضى على الحملة الفرنسية في مصر وفى سوريا بالاختناق والخذلان . ومن أجل ذلك أيضاً احتل الانجليز جزيرة مالطة سنة ١٨٠١ كما احتلوا ميناء عدن سنة ١٨٣٩ . وخشى الانجليز أن

يثبت سلطان محمد علي في بلدان الشرق الأوسط فيقوى بذلك نفوذ فرنسا حليفته فجعلوا يناوئونه ويناصرون تركيا عليه حتى انسحب محمد علي من بلاد العرب وبلاد الشرق وانكمش داخل حدوده في مصر والسودان .

وتجدد الكفاح ثانية على أثر افتتاح قناة السويس وظهور ذلك الانقلاب الخطير في عالم السياسة والتجارة في الشرق الأوسط ، فقد كان انشاء القناة عملاً فرنسياً عظيماً وكان النفوذ الفرنسي في شركة القناة هو الغالب ولذلك أخذت الحكومة الانجليزية تعمل بمختلف الوسائل لمنع فرنسا من استغلال الحالة في مصر والقناة لمصلحتها وسارع الوزير الانجليزي دزرائيلي إلى شراء أسهم الخديو اسماعيل في القناة فأصبح من صالح انجلترا بعد ذلك أن تكون لها قاعدة قريبة تشرف منها على القناة من جهة وترب منها نشاط السياسة الروسية التي بدأت تهدد مصالح انجلترا في الشرق فاغتنمت فرصة انعقاد مؤتمر برلين ١٨٧٨ وطلبت إلى تركيا أن تنزل لها عن جزيرة قبرص ثمنا لمعاونتها لها ضد روسيا . وما فتئت انجلترا تواصل سياستها حتى أسكنها التغلغل في شئون مصر المالية ثم التدخل في شئونها السياسية وأخيراً استطاعت أن تتدخل بالقوة بمفردها وتحتل مصر سنة ١٨٨٢ بدعوى مناصرة الخديو توفيق وقمع الثورة العربية . ولم يكن احجام فرنسا عن الاشتراك مع انجلترا في احتلال مصر بسبب زهدها في مجال السيطرة والاستعمار ولكن فرنسا كانت حديثة عهد بالهزيمة أمام ألمانيا وكانت بحاجة شديدة إلى سوالة انجلترا وعدم اثارها ضدها لتكون إلى جانبها إذا قسمت عليها الظروف . وكانت فرنسا ترنو ببصرها إلى شمال أفريقية وبلاد المغرب تريد أن تؤلف منها دولة استعمارية قريبة إلى بلادها تعوضها عما فقدته في ميدان الحرب والاستعمار فما زالت مسافة الخلف تضيق حتى تم بينهما الاتفاق الودى في سنة ١٩٠٤ . وبه انجلت فرنسا عن ميدان السياسة في الشرق الأوسط ولم يبق لها غير الأثر الثقافي والديني في بعض أرجائه . وكانت لروسيا أيضاً مطامع في الشرق الأوسط حول إيران وخليج فارس فعصفت بها هزيمتها المنكرة على أيدي اليابان براً وبحراً سنة ١٩٠٥ ، وتعاقبت روسيا وبريطانيا سنة ١٩٠٧ فانحسر الخطر الروسي وحل محله الخطر الألماني بعد أن أعلن الامبراطور وليم الثاني صداقته نحو تركيا واعترامه ربط الامبراطوريتين بالخط الحديدي بين برلين وبغداد . وعند ذلك أخذت انجلترا تستعد لداء الخطر

عن تلك المنطقة بواسطة ساستها وخبرائها وصنائعها حتى دنت ساعة الحرب العالمية الأولى فلم تتوان في إعلان حمايتها على مصر وعزل خديويها الذي اتهمته بمألاة الألمان. ودارت المفاوضات بين الشريف حسين أمير مكة وبين رسل الانجليز فاتفق الجانبان على أنه في مقابل قيام الثورة العربية ضد الأتراك تتعهد الحكومة الانجليزية باستقلال البلاد العربية وقد حددها الشريف حسين حينذاك بحدود تدخل في نطاقها سوريا والعراق وفلسطين فضلاً عن شبه جزيرة العرب ما عدا مستعمرة عدن . وكان إعلان الثورة العربية فاتحة عهد جديد في بلاد ظلت خاضعة للحكم العثماني مع ما انطوى عليه من ضعف وانحلال وركود قومي شامل طوال أربعة قرون فأفاق شعوب الشرق الأوسط من سباتها وسارت كتابها تحت علم الثورة نافرة إلى الحرب في صفوف الذين منوهم بالحرية والاستقلال فما انتهت الحرب بهزيمة الألمان وطرد الترك خارج حدود العالم العربي حتى تنكر لهم حلفاؤهم القدس ودخل الشرق الأوسط في طور جديد من حياته كله كفاح وجلاء وجهاد في سبيل الإصلاح تارة وغالباً ضد المستعمرين الذين استمروا الحياة مع الغنم في تلك البلاد .

وكان الحلفاء في أثناء الحرب العالمية الأولى قد قطعوا على أنفسهم العهود بأنهم لا يرومون من الحرب أن يوسعوا رقعة بلادهم أو أن يضيفوا إلى ممتلكاتهم ومستعمراتهم أقاليم جديدة . ولكنهم ما عتموا أن رأوا أن الحرب قد قضت على أربع من امبراطوريات العالم الكبرى وهي روسيا بعد ثورتها الكبرى في سنة ١٩١٧ وألمانيا والنمسا وتركيا وأنه قد انسلخ عن تركيا وألمانيا ولايات ومستعمرات لا سبيل إلى عودتها إليهما ثانية فنكت الحلفاء إبعوهم وداروا أطاعهم تحت ستار رقيق من نظام الانتداب الذي ابتدعوه في ميثاق عصبة الأمم . وكان لبريطانيا وفرنسا بحكم تفوقهما بعد الحرب وخاصة بعد انسحاب الولايات المتحدة وانشغال روسيا بثورتها أن تقسما مناطق النفوذ ويقررا فيما بينهما حدودها . وكانت فرنسا تدعى لنفسها مركزاً ممتازاً في الشرق الأوسط مذ كانت أولى الدول الأوروبية التي تعاقدت مع سلطان تركيا في القرن السادس عشر وبسبب حمايتها للشعوب الكاثوليكية داخل الدولة العثمانية وخاصة في لبنان وما كان لها من ثقافة لاتينية فرنسية بثمتها ارسالياتها الدينية وكلياتها ومدارسها المنتشرة في أنحاء بلدان الشرق الأوسط لذلك طالبت فرنسا

بحقها في الانتداب على منطقة شرق البحر المتوسط كله . ولكن السياسة الانجليزية كانت على حذر من مطامع الفرنسيين في الشرق فاتفق الرأي على أن يكون لفرنسا الانتداب على سوريا ولبنان واحتفظت إنجلترا لنفسها بالانتداب على العراق وفلسطين وشرق الأردن ولا يبقى بعد ذلك مستقلا من دول الشرق الأوسط غير بلاد العرب بيد الملك حسين شريف مكة . وكانت إنجلترا تعلم أن أمام النهضة العربية في الشرق الأوسط مستقبلا سيعيج بالأحداث والاحتمالات وأن مصالحها في تلك المنطقة تقتضى أن تكون بيدها قواعد استراتيجية ترقب منها تطور الحركة العربية من جهة وتنشرف منها على مصالحها في القناة من جهة أخرى متى أذن الوقت بجلائها عن مصر استجابة للروح الوطنية التي بدأت تتأجج في مصر منذ ثورتها في سنة ١٩١٩ ، فصممت على أن تتمسك بمنطقة نفوذها في فلسطين وشرق الأردن ، وهي لا تزال على رأيها فيما يخص شرق الأردن على الأقل . وما كاد الحلفاء يوزعون على أنفسهم أسلاب الحرب باسم الانتدابات حتى ظهر في ميدان الشرق الأوسط عامل جديد هو في خطورته اليوم أبعاد أثرأ وأشد وقعا من إنشاء القناة — ذلكم هو تفجر عيون البترول قرب الموصل وكركوك بالعراق واختزان كميات هائلة منه في جهات متعددة على طول المنطقة التي تمتد من خليج فارس إلى ساحل البحر المتوسط وتشمل الكويت وجزيرة البحرين وبلاد العرب السعودية وسوريا ومصر . ولما كان زيت البترول هو عصب الحروب الحديثة والقوة المحركة للطائرات والدبابات والسيارات والسفن الحربية لذلك كان التسابق على استغلال آباره في الشرق الأوسط من أقوى العوامل التي ركزت اهتمام الدول بهذه المنطقة . وليس أدل على ذلك من جهود ألمانيا الجبارة في أثناء الحرب الأخيرة للوصول إلى موارده سواء في رومانيا أو القوقاز أو خليج فارس . والدول في معركة البترول تتساوى جهودها سواء منها المحروم كبريطانيا وفرنسا أو المتخوم كروسيا والولايات المتحدة . فالمحروم حاجته إليه طبيعية وأما المتخوم فتدفعه إلى التسابق بشأنه عوامل مهمة أخرى . فروسيا مثلا لديها موارد البترول التي تكفيها في حالتها السلم والحرب وهي ثانية دول العالم إنتاجا للبترول بعد أمريكا ولكنها تآبى على منافستها أو أعدائها أن يتوافر لديهم ذلك السائل السحري الثمين فيستخدسوه ضدها إذا قامت الحرب ، والولايات المتحدة تخشى أن ينضب معين بترولها التدفق في بلادها

فتريد أن تأمن على مستقبلها في السلم والحرب وذلك بالاستحواذ على بعض موارده الغنية في الشرق الأوسط .

لذلك ما كادت شركة البترول العراقية تتألف من الانجليز والفرنسيين والهولنديين حتى طالبت الولايات المتحدة بنصيبها في أسهمها فكان لها مقدار ٢٣,٧٥ في المائة من أسهمها . وكان هذا أول تدخل من جانب أمريكا في الميدان الاقتصادي بالشرق الأوسط .

ولما كشف الملك عبد العزيز آل سعود عن منافع البترول في شبه جزيرة العرب خشي أن يؤدي ذلك إلى تدخل الدول الاستعمارية في شئون بلاده ولذلك رفض أن يستمع إلى عروض بريطانيا أو إيطاليا واختار بعض الشركات الأمريكية فأعطاهما سنة ١٩٣٢ حقوق الامتياز في مساحات واسعة من بلاده وقد أفادت بلاد العرب السعودية من ذلك فوائد اقتصادية واجتماعية على جانب عظيم من الأهمية . وفي سنة ١٩٣٦ فازت الولايات المتحدة أيضاً بامتياز البترول في البحرين . وأما بريطانيا فلديها إنتاج الشركة الايرانية الانجليزية وهي أقدم شركات البترول في الشرق الأوسط عهداً وأوفرها انتاجاً ولها في شركة البترول العراقية مقدار نصف أسهمها كما أن لها إنتاج الكويت وتجد بريطانيا من نفوذها السياسي في الشرق الأوسط ما يعينها على المحافظة على مصالحها الاقتصادية . أما الولايات المتحدة فتركز جهودها في الناحية الاقتصادية وتآتم ببريطانيا طواعية في الناحية السياسية .

وتحصر انجلترا على مصالحها في البترول حرصاً شديداً دعاها في سنة ١٩٤٦ إلى إرسال قوة حرية لاحتلال البصرة عندما نسبت بعض الاضطرابات العالمية وخشيت على مواردها في إيران من الخطر . ولما حاولت روسيا عقب الحرب الأخيرة مد أجل احتلالها لشمال إيران ثم إثارة أهل آذربيجان للثورة والاستقلال عن إيران وأحست بريطانيا أن الخطر الروسي يقترب رويداً رويداً بن حقول البترول الايرانية تدخلت بريطانيا فمقمت إيران بشكواها إلى مجلس الأمن ومازال المجلس يناقش روسيا الحساب حتى اضطرت إلى مغادرة إيران والتخلي عن آذربيجان فأتمت فيها الثورة وبقيت مصالح بريطانيا في البترول سليمة ولو إلى أجل موقوت .

ولما كان إنتاج البترول الايراني يصل إلى بريطانيا في خرابات خاصة عن

طريق قناة السويس كما أن بترول العراق يمر في أنابيب خاصة تحت أرض العراق وشرق الأردن وفلسطين إلى ميناءي حيفا وبفلسطين وطرابلس بلبنان لذلك كان اهتمام بريطانيا عظيماً بالتطورات السياسية التي لازمت نهضة بلدان الشرق الأوسط في السنين الأخيرة . فسايرت إنجلترا روح النهضة الحديثة التي بدت بين الشعوب العربية ووفقت بقدر الامكان بين مصالحها وبين مطالب هذه الشعوب في الحرية والاستقلال وعلى ذلك نزلت عن حمايتها على مصر وأقرت استقلالها كما نزلت عن انتدابها في العراق واستعاضت عن الحماية والانتداب بمعاهدتين مع البلدين أو شككتا أن يستنفدا موضوعهما . وبقيت مشكلة فلسطين التي عقدتها إنجلترا ومعها الحلفاء في سنة ١٩١٧ باعلان تصريح بلفور فأفادت إنجلترا من انتدابها عليها سوى الحوادث الدامية والثورات المتعاقبة وقيام النزاع بشأنها بين العرب واليهود حتى أصبحت مشكلة فلسطين من أعقد وأشد ماواجهه العالم الحديث من مشكلات الشرق الأوسط .

أما فرنسا فقد سارت في سوريا ولبنان وفق سياستها الاستعمارية العتيقة التي ترمي إلى خدمة مصالح فرنسا الكبرى وادماج العناصر الوطنية داخل دائرة الجنسية الفرنسية المرننة فتغذيهم بثقافتها وتغذي بهم جيوشها لتخرج فرنسا من ذلك كله قوة عزيزة الجانب دون أي اعتبار لمبادئ الحرية التي ورثتها عن الثورة الفرنسية والتي لم تسمح منها بقليل أو كثير للشعوب التي انتدبت لها . ومع أن نظام الانتداب قد غيّر الأسس التي كانت تقوم عليه سياسة الاستعمار قديماً فجعل واجب الدولة صاحبة الانتداب هو العمل على مساعدة الشعب المنتدبة له وتمهينه لحكم نفسه بل أن ميثاق العصبة ينص صراحة على الاعتراف باستقلال الشعوب الراقية التي كانت خاضعة لتركيا فان فرنسا لم تحط خطوة واحدة في سبيل تحقيق استقلال هذه الشعوب أو تمهينها للحكم الذاتي . وكان أول مبدأ راعته فرنسا في دائرة انتدابها هو مبدأ التفرقة بين المذاهب الدينية والجماعات الوطنية فأوجدت دويلات محلية مستقلة عن سوريا ولبنان كجبل الدروز وإقليم العلويين وسنجق اسكندرون . كل ذلك لأن الشعور بالاستقلال وبالوحدة العربية في سوريا كان قوياً وجارفاً وكانت فرنسا تحشاه بدرجة جعلتها تقسو وتتعت في مناهضة المصالح الوطنية لأهل البلاد كافة حتى فقدت فرنسا المكانة الممتازة التي كانت لها في الماضي لا في سوريا وحدها بل وفي لبنان أيضاً .

لذلك لم يكن غريباً أن ينتهز الوطنيون فرصة اندحار فرنسا أمام ألمانيا في الحرب الأخيرة فيعملوا على تحقيق أمانهم في الاستقلال والتخلص من آثار الانتداب الفرنسي جميعاً - فة واحدة . وكانت الحكومة الانجليزية تدرك أهمية سوريا ولبنان من الوجهة الحربية مذ كانت دولتا المحور تهددان مصر من جهة حدودها الغربية . وكان الحلفاء يستمدون بترول العراق في أنابيب حيفا وطرابلس فما كادت تلمح لثار المعاونة التي كان يقدمها أعوان كومة فيشي للمحور في دولتي المشرق وفي العراق حتى أجمع الحلفاء أمرهم على تحرير سوريا ولبنان من قوات حكومة فيشي وتألقت قوة من الجنود البريطانية وجنود فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ولسون ومعه القائد الفرنسي كاترو للزحف على بلاد المشرق في خريف عام ١٩٤١ فلم تجد القوة صعوبة في كسر مقاومة جنود حكومة فيشي . وقد سبق قيام الحملة وأعقبها إعلان من حكومة فرنسا الحرة ومن الحكومة الانجليزية بموافقتهما على استقلال سوريا ولبنان واعتبار كل منهما دولة ذات سيادة فاطمان الوطنيون في الدولتين ومهدوا للحلفاء طريق النصر على أعوان المحور .

وبدخول الانجليز منتصرين بلاد المشرق بدأت في البلاد سياسة جديدة فقد أصبح للانجليز المكانة الحربية الأولى وتأخرت منزلة فرنسا على حين اتسعت دائرة المعاملات بين الانجليز والبلدين . وكان إعلان الاستقلال الذي أصدرته حكومة الجنرال ديغول يشير إلى ضرورة تسوية الروابط بين الطرفين في معاهدة حرة تعقد بينهما بعد الحرب . ولكن الوطنيين أبوا الاعتراف بحق الانتداب نفسه على أساس أن حكومة فيشي قد انفصلت عن عصبة الأمم في سنة ١٩٤١ ولم يعد للانتداب على بلادهم أصل قانوني وهم لذلك خليقون أن يتمتعوا بالاستقلال التام ويكل مظاهره من حكم نيابي ديمقراطي وتمثيل أجنبي وجيوش وطنية دون أي اعتراض من جانب فرنسا . واضطرت فرنسا إلى الخضوع في أول الأمر وانضم الدروز والعليون إلى سوريا وجرت الانتخابات فاختر الزعيم شكري القوتلي رئيساً للجمهورية السورية كما انتخب الشيخ بشاره الخوري رئيساً للجمهورية اللبنانية . ولما كان الحزب الذي يتزعمه الرئيس اللبناني يناصر حركة الوحدة العربية ويؤيد استقلال لبنان التام فان فرنسا لم تستطع الصبر طويلاً وحقن الندوب الفرنسية ذات ليلة وقبض على رئيس

الجمهورية ورجال حكومته واعتقلهم خارج بيروت في نوفمبر ١٩٤٣ فكان ذلك إيذاناً بميلاد روح وطنية جديدة جعلت اللبنانيين يتعاونون جميعاً ضد الأجنبي . ولقيت الجمهورية الناشئة من جانب أمريكا الحكومة الانجليزية ومن جانب مصر وأخواتها من الدول العربية أكبر عون على فرنسا فلم يسع اللجنة الفرنسية الحرة إلا الرضوخ لمطالب الوطنيين .

ولما ترددت فرنسا وتباطأت في الجلاء عن البلاد ما لم يعترف لها الوطنيون بمركزها الخاص لجأت سوريا ولبنان تشكوها إلى مجلس الأمن سنة ١٩٤٦ وطالبتا بجلاء الانجليز والفرنسيين جميعاً عن بلادهما واضطرت فرنسا أخيراً إلى قبول رأى أغلبية المجلس فحزمت أمرها ومتاعها وانجالت عن بلاد المشرق تاركة بريطانيا وحدها أمام أخطار القومية العربية من جهة ومنافسة أمريكا وروسيا لها في هذا الميدان الجديد من جهة أخرى .

ورأت انجلترا أن خير علاج للموقف يشقيه أن تحيي فكرة الجامعة العربية التي ازدهرت ربحاً من الزمن في عهد السلطان عبد الحميد باسم الجامعة الاسلامية وكانت بريطانيا إذ ذاك كعادتها متحيرة مترددة بين تحييد الفكرة وانكارها فقد كانت تحض على الفكرة لمعارضة النفوذ الروسي الذي كان يهدد أملاك الدولة كما أنها كانت تخشاه خوفاً على ولاء مسلمي الهند نحو الامبراطور الملك . أما بعد انتصار الحلفاء في الحرب الأخيرة واضطلاع الروس فيه بدور البطولة العالمية فان الخطر الروسي قد تجسم أمام بريطانيا بدرجة جعلتها تقدم على إخراج فكرة جامعة الدول العربية إلى حيز السياسة الواقعية دون أن تبالي بما قد يترتب على تأليف الجامعة من نتائج قد تضرب بمصالحها قبل أية دولة أخرى . وكان أول إيذان بفكرة الجامعة الحديثة في صيف عام ١٩٤١ إذ وقف مستر ايدن وزير خارجية انجلترا يعلن في قصر محافظ لندن عن سياسة الحكومة الانجليزية بشأن مستقبل الشعوب العربية ويقول « إن روابط الصداقة التي تجمع بيننا وبين العرب ترجع إلى عهد بعيد فلنا بينهم أصدقاء عديدون كما أن لهم بيننا أصدقاء حميين . . . ولقد كان من أعز آماني عدد كبير من مفكرى العرب وقادة الرأى فيهم أن تنعم الشعوب العربية بوحدة أوسع مدى مما بلغته الآن . . . ونحن لا يسعنا إلا الاستجابة إلى هذا النداء لأن تقوية الروابط الاقتصادية والثقافية والسياسية أيضاً بين الدول

العربية أمر اعتبره في الحقيقة طبعيا وعادلا . ولهذا فإن حكومة جلالة الملك تعلن أنها ستناصر كل مشروع يرمى إلى تحقيق هذه الأغراض متى كان المشروع حائزاً لرضاء الجميع . « ولم تكن أمريكا حين أعلنت انجلترا ذلك التصريح قد انحازت بعد إلى جانب الانجليز في الحرب كما أن فرنسا كانت قد أقصيت عن الميدان مهزومة مهينة الجناح . أما روسيا فكانت لا تزال مرتبطة بألمانيا وتوشك أن تنقلب عليها حليفها بغزواتها المروعة . لذلك ولد مشروع الجامعة العربية بمنأى عن أمريكا وروسيا وفرنسا وعلى أيدي بريطانيا وحدها وهي إذ ذاك مثقلة بالهموم وقادح المسئوليات . وكأما أرادت انجلترا أن تترك للشعوب العربية إرثاً يذكرونها به بعد الحرب فكانت أن أعلنت ذلك التصريح الذي يفوق في مرماه البعيد في الشرق الأوسط على مشروع قناة السويس أو كشف منابع البترول . وكانت الشعوب العربية منذ قامت مشكلة فلسطين تتوثب لتحقيق فكرة الجامعة العربية ولذلك سرعان ما قتنعت مصر بتبنى المشروع وقامت على نفيه مع أخواتها بمقتضى بروتوكل الاسكندرية في أكتوبر سنة ١٩٤٤ تم وفق ميثاق الجامعة في مارس سنة ١٩٤٥ .

وإذا كانت بريطانيا قد ظنت أنه بإنشاء جامعة الدول العربية قد أقامت حاجزاً في وجه التنافس الدولي بشأن الشرق الأوسط . أو إذا كانت الشعوب العربية قد توهمت أن قيام الجامعة سيعصمها من استعمار المستعمرين فقد أخطأت بريطانيا وأخطأ العرب جميعاً . لأن الاستعمار لا يشترط فيه أن يكون مقصوراً على الحكم والسياسة بل إنه يشمل الثقافة والاقتصاديات أيضاً وهيئات أن تجد الشعوب العربية في ثقافتها وصناعاتها واقتصادياتها ما يغنيها عن التعاون الأجنبي . ثم إنه ما دامت الحروب أمراً محتمل الوقوع فإن الدول التي تطمع في مكانتها العالمية سترون دائماً بصرها إلى منطقة الشرق الأوسط حيث توجد أهم القواعد الاستراتيجية في العالم .

وسيلظل اهتمام الدول الكبرى بهذه المنطقة قائماً إلى أن تستكمل شعوب الشرق الأوسط أسباب نهضتها أو تلغى مادة الحرب من القاموس الدولي .